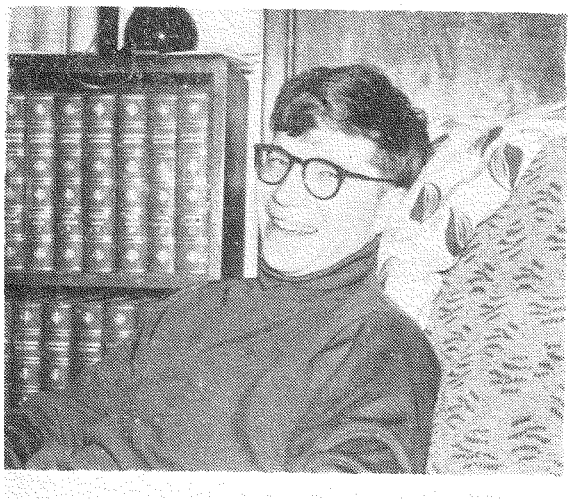

كولن ويلسون عن قرب

بقلم يوسف شرورو

في هذا الشهر تصدر عن « دار الاداب » رواية كولن ويلسون « ضياع في سوهو » ترجمة يوسف شرورو وعمر يمق . وهذه الرواية اول كتاب تنشره دار الاداب للاديب البريطاني الكبير بعد ان تعاقدت معه على نشر كتبه بالعربية. وفيما يلي المقدمة التي كتبها احد المترجمين لهذه الرواية التي هزت الاوساط البريطانية لدى صدورها منذ وقت قصير :

بدأ يتساءل في عالم ضبابي « من انا ؟ » « وماذا سأفعل ؟ » «ولم جئت الى الحياة ؟» ولم يلتقط عقله اجوبة منطقية ، والحياة العادية ، وساعات العمل اليدوي، ووجوه الرفاق من العمال تقابل عينيه كل يوم ،ولاجديد..

هل ستمضي الحياة دون ان يتفجر من داخلها شيء ؟ وجه الام ترتسم عليه علامات حيرة : ماذا عن ولدي؟ انه يعيش منزويا في غرفته يقرأ الكتب الفلسفية التي لا تفهمها . ويستمع الى مقطوعات موسيقية كلاسيكية . ويذهب الى عمله حيث يحفر الارض ليزرع فيها اسلاك التليفونات الجديدة في بلدته .

واقتنع هاري « كولن ويلسون » بان الحياة ستمضي دون جديد ، وعليه ان يفتح فجوة حتى ولو كانت صغيرة في جدار سجنه الرتيب ويمرق منها كقطة صغيرة ، باحثا عن شيء جديد يحياه بعمق وبلون وبحركة .

وذات يوم قذف بنفسه نحو بحيرة التكثف البشري، عله يغوص هناك وينال شيئا يحتضنه باعتزاز قرب قلبه، فقد باتت له حياته الماضية ، كئيبة حالكة كقبر مهجور لن يدفن فيه احد . وجلس وحيدا بملابسه العمالية في قطار صباحي كتب على مقدمته اسم لندن . المدينة العملاقة المخيفة التي تفترس وتشوه وتخلق وتصنع بآن واحد .

وكانت تدور في عقله فكرة صغيرة :

« انا احيا الحياة بلا الوان . الايام . يوم واحد لا شيء ينصب فيها او ينبع منها . ان تتحرك ولو حركة بسيطة الى الخلف ، ان تدير رأسك نحو مكان بعيد او قريب ، ان تتأمل شجرة منغرسة في شارع ، ان تفكر في اضافة اشياء مبهمة لا تعرفها انت ، لأفضل من ان تظل سماكنا كحجر كبير يرتكز على قاعدته تمثال .

التدفق يعني الاستمرار . انا لا مستمر . المس الاشياء دون ان تلسعني حرارتها ، ارى بعينين بشريتين ، ولا تمييز للاشياء الدقيقة . اريد ان أحيا الحياة من جديد ، وبشكل جديد لا جدران تتطاول امامي . »

ووصل الشاب المزدحم عقله بالكتب والموسيقى والافكار المثالية التي تعوم دون عمق في حياته ، فوجد نفسه فجأة في لندن وهو الذي لم يترك بلدته الصغيرة في المقاطعات الوسطى من انكلترا . وكانت العاصمة تموج بملايين الوجوه المختلفة والمتشابهة ايضا . ولم يكن يدري كيف يحرك قدمه ليخطو الخطوة الاولى نحو الاشياء الغامضة .

قد ينغمس في مغامرة جريئة تضعه في صفوف المغامرين ، وقد يعب من ثقافة وسمة يضيفها الى ثقافته التي حسب بانها ضحلة ، وقد تمتد نحو يد صديقة ومعجبة وتقوده الى دروب وعرة يسمع فيها حركات قلمه على صفحات من الورق ، يريد ان يكتب عن تجربة البحث عن حرية تنبعث من اعماق النفس بلا زخرفة وبلا تعقيد وبلا التزام .

وخاف على خطواته من الضياع على ارصفة لندن المعبأة بالاقدام المتحركة كحركة آلات صدمة ، لا وجه يعرفه ، لا انسان يتحدث معه .

وضاق بالوحدة . وتنقل من مكان الى مكان حيث الوجوه كثيفة كغابة لم تمتد اليها يد . والتقى بجيمس المعلم الاكبر .

كان جيمس شخصية جذابة ، وكان مترعا بالتجارب المتنوعة ، واثقا من نفسه ، يحب الناس ولا يحبهم ايضا ، يؤمن بالحرية الطليقة ، بالعيش من يوم ليوم ، او بالاصح من وجبة طعام الى اخرى . واخذ جيمس يلقن هاري ـ كولن ويلسون ـ دروسا زاهية اعجب بها كولن وشدته بصدق نحو جيمس ، القامة المسرحية الرائعة كما اطلق عليه كولن ويلسون وهو يعرفني به .

وجيمس شخصية واقعية تعوم على ارصفة سوهو

بلا هدف . ولم اصدق كولن في بداية الامر بأن شخصية جيمس حقيقية تعيش معنا في قلب لندن ، دون ان تلعب بها الكلمات الكثيرة المندفعة من افواه تتحرك شفاهها بلا توقف ، الا عندما رأيته وصافحته ، وعلمت بأن اسمه الحقيقي « تشارلز » .

وقد وضعه كولن في روايته التي اهداها اليه ، كشخصية غير مزخرفة ، يعيش حياته دون تعقيد ويصرف اخر « بنس » في جيبه على اصدقائه .

وتعرف هاري بـ « دورين » الفتاة التي لمحت من احاديث كولن الخاصة الي ، بأنها زوجته التي انجبت له ابنته سالي . فقد اخذه جيمس يوما الى بيت كبير تحتله وجوه عديدة شابة تعيش الحياة بشكل بدائي كما كان يعيش الانسان الاول ، وبهرته حياة الناس اللامبهرجة وذهب ليزداد التصاقا بحريته التي التقطها في لندن . ومرة قال لي كولن : ـ احببت الحياة في ذلك البيت ، وقد تعرفت على جوي ـ زوجته ـ التي كانت مخطوبة في ذلك الوقت لانسان غيري ، وتزوجتها وعشنا معا لمدة طويلة مع احياء بيت « ناتنغ هل » .

اولع هاري ـ كولن ـ بحياة التشرد والتسكع اللامرتبطة بشيء ، ومقت العمل ، وتهرب من مسؤوليته كانسان عامل ، يريد ان يحب الحياة بطريقة مبتكرة ، واختزن في عقله كل شخصيات سوهو المهزوزة وغير المهزوزة ، وانجرف مع بعضها ليعب من الخمرة وليدخن الحشيش مقلدا « اولدوس هكسلي » كما قال لي .

وانفق نقوده على زجاجات النبيذ الغالية والرخيصة حتى تخصص فيها ، وعرف نقاوة كل زجاجة اذا رشف او كرع منها ، وفي ليلة اخذني كولن الى حافة صغيرة ضيقة في « ناتنغ هل » تختص بالانبذة ، وقالت لي المرأة التي تخدم هناك :

ـ كولن مولع بالنبيذ ، وشهير في شربه ، وقبل ان اعقد صفقة شراء ، اطلب منه ان يتذوق جرعات من زجاجة ، وبعدها اقرر الشراء أو عدم الشراء .

ان حياة التسكع على ارصفة سوهو ، قد زودته بمعرفة يعتز بها ، فهو يعرف الازقة المسدودة وغير المسدودة والاطعمة والمطاعم ، على ان تكون رخيصة . وندرة نقوده قادته الى المتحف البريطاني حيث كان يقتات الكتب كفأر صغير يريد ان يكون كبيرا ، وقرأ وقرأ وفكر ، ثم بدأ يكتب .

واخرجت المطابع « اللامنتمي » ثم اعقبه برواية « طقوس في الظلام » وجاء كتابه الثاني الذي ترجم الى العربية بعنوان « سقوط الحضارة » ولكنه لم يكتب شيئا عن حياة التشرد التي عاشها في لندن . لم يخط الاشياء الحقيقية التي امتصها بكل صدق ، وبدأ يفكر في رواية جديدة يلقي في سطورها ، بالسطور الحقيقية التي عاشها كباحث عن حرية آمن بها . ثم وجدها ، ثم ... لا ادري ماذا فعل بها !!

وقد قال رأيه في الحرية التي يعيشها جيمس بكل صدق وجرأة . « انا ارفضها » ورفضته ايضا ، واصبح كولن شهيرا تعرفه اوساط لندن وتحسب عليه حركاته ، وتضخم رصيده المالي في البنك ، واشترى مجموعة كبيرة من الكتب ، ومن الاسطوانات الموسيقية وركض حتى سكن في بيت بعيد منعزل في اخر نقطة من انكلترا ، وعاش هناك ليقرأ ويكتب ويشرب النبيذ ، ويستمع الى الموسيقى .

وكتب رواية « ضياع في سوهو » التي وضع فيها رأيه بكل صراحة عن الناس الذين يمثلون بأنهم يعيشون حريتهم ، والتي هي زائفة لا نطلق عليها حرية .

وقعد المتسكع في بيت يشبه قلعة حديثة تطاولت على تلة خضراء ، يحرس قلعته كلب ضخم قدمه هدية لابنته سالي في عيد ميلادها الثالث ، ليكتب عن التشرد الفكري الذي يمضغ العقل الانساني ويرعبه . واصبح برجوازيا كبيرا يرسل بطاقات بريد قصيرة لاصدقائه في لندن ، يخبرهم فيها عن موعد قدومه الى لندن .

وامامي الان بطاقة قصيرة يقول فيها :

« عزيزي يوسف ، سأزور لندن يوم الخميس القادم ، وسأتصل بك هاتفيا ، قد نتناول طعام العشاء معا ونتحدث عن « الوجودية الجديدة » .

« كولن »

ودعانا البرجوازي الى حفلة عشاء وكنا اكثر من عشرة اشخاص ، كنت اجلس بقربه اتحدث معه عن كتابه الجديد الذي لم ينته من كتابته ، والذي يتابع فيه «اللامنتمي» وقد اطلق عليه عنوانا جديدا «بعيد اللامنتمي» .

وفجأة ابتسم ورفع قدح نبيذه المعتق وقال بحرارة وبصدق :

ـ نخب العالم العربي بأناسه الرائعين ، الذين يقرأون كولن ويلسون ويحبونه .

وشربنا النخب ، واحضر الجرسون الطعام الايطالي المفضل لدى كولن بعد « الكباب » .

قلت له ونحن نأكل : ـ نخب الذي توقف عن البحث

صدر حديثا

مرفأ الذكريات

« شعر »

للشاعر العراقي المجدد

هلال ناجي

وراء حريته ، نخب الانسان الذي يكتب ويكتب وهو معتزل في قلعته الشامخة في « جورن هيفن» . نخب البرجوازي!

واجاب بحدة : ــ انا لا برجوازي ما زلت ابحث عن الحرية ، الحرية هي المسؤولية تجاه الناس الذين يقرأون كتبي الجديدة ، تجاه زوجتي وابنتي ، الحرية ليست تسكعا وسرحانا ، انا اكتب الان عن الحرية العقلية وستجدها في كتابي « بعيد اللامنتمي » الذي اتحدث فيه عن افكاري الجديد . انا اخاف ان اوصم بهذا اللقب : « برجوازي » ، ارجوك ان لا تذكره مرة ثانية .

وابتسمت له ، اقترب مني وهمس :

ــ انا اعرف لم قلت هذا ، انت تنتقد رواية « رجل بلا ظل » التي اسرد فيها مذكرات « جيرالد سورم » والتي كتبتها لان ناشرا اميركيا دفع فيها مبلغا كبيرا .

وسافر كولن في اليوم التالي .

ثم اخرجت المطابع رواية جديدة رائعة اسمها « الشك الضروري » ارسلها مع رسالة قصيرة يقول فيها « لن اقرأ نقدها في الصحف ، فالنقد يفعمني بمرض خبيث ، ارجو أن تقول رأيك فيها » وكانت رائعة ، وانا اعمل في ترجمتها الان مع « عمر يمق » الذي يقدم الدكتوراه في جامعة لندن .

عندما اطلت رواية « ضياع في سوهو » بغلافها الاصفر من واجهات المكتبات بدأ الناس هنا يشترونها ويلهثون خلف شخصياتها ، وقد كتب الناقد الادبي لمجلة « الصندي تايمز » :

« كنت الهث وانا اقرأ رواية كولن ويلسون « ضياع في سوهو » ، وكنت اسمع بأذني تنفس ابطاله كأنهم يعيشون معي في غرفة واحدة ، انه عمل رائع . » من الدقيقة الاولى التي تبدأ فيها قراءة الرواية ، تشعر بالضياع ، تذهل ، تجذب حتى تنتهي منها ، لتجد نفسك من جديد .

الشخصيات الكرتونية ، الممثلون العاطلون عن العمل ، صاحبات البيوت القاسيات ،

الشراشف القذرة الممزقة ، كل هذه تراها وتشم رائحتها في رواية « كولن ويلسون . »

وكتب ناقد اخر : « رائعة ، عمل ناجح ، لن يتسرب اليك الشك بأنها شيء حقيقي . »

واذكر الان كلمات قالها كولن ويلسون لي :

« عمل الانسان الخلاق أن يوسع مدى التجارب الانساني ، ويعلم الرجال كيفية الاستفادة من عقله وخياله، والخيال كما اؤمن به ، هو القابلية المنفتحة التي تجعلك تحسن بأن الاشياء الحاضرة في هذه اللحظة غير موجودة امام عينيك ، وانا ارى الرجال العظام في هذا القرن مثل الالات الممزقة للصخور ، كلهم يحاولون أن يمزقوا العمق العقلي الجديد في الانسان . »

الرواية بين يديك الان ، وكولن ويلسون يجري امام عيوننا على الورق ، فهل هو احد الذين يوسعون مدى التجارب الانسانية ويلقونها كلمات حية تعج بالحياة على الورق ؟

أم هو احد الرجال ــ الالات الممزقة للصخور ــ الذين يحاولون تمزيق العقل الانساني بكتبهم ؟

انا اؤمن بأنه واحد من الذين امدوا مكتبة الادب بكتب جيدة واعية ، فيها جهد وتعب ومعرفة ! لم تقعده الشهرة والثروة عن البحث المتواصل القائم على طلب الثقافة اللامزيفة ، والان اتساءل انا ، هل وجد كولن ويلسون نفسه ؟

هل عرف ماذا سيفعل ، هل علم لم جاء الى هذه الحياة ؟؟

انني اؤمن بأنه وجد الاجوبة الصحيحة على اسئلته السابقة .

لندن

يوسف شرورو

صدر حديثا

عاشق من افريقيا

مجموعة شعرية جديدة يعود بها الشاعر المبدع

محمد الفيتوري

الى قرائه الكثيرين بعد غياب بضعة اعوام

نكهة جديدة في اسلوب متطور

الثمن ليرتان لبنانيتان

منشورات دار الاداب